وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة البصرة

كلية الآداب

قسم الفلسفة

نظرية الصرفة عند المعتزلة

(النظام والجاحظ انموذجاً)

اعداد

المدرس المساعد حيدر عبد الحسين قصير

AL serfahe theory in the mutazilah

(Amodel AL Nezam and AL Gahthe))

researcher

Hidder Abdl AL Hessean

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الى مجلة دراسات البصرة والخليج العربي

تعهد خطي

اني الباحث حيدر عبد الحسين قصير الموقع ادناه اتعهد باني اكملت جميع التعديلات المطلوبة من قبل مجلتكم لبحثي الموسوم ((نظرية الصرفة عند المعتزلة النظام والجاحظ انموذجاً))

ولاجله وقعت

التوقيع :

الباحث : م م حيد عبد الحسين قصير

كلية الاداب : قسم الفلسفة ١٨ / ٥ / ٢٠١٥

الخلاصة :

لقد ظهرت اراء المعتزله بعد ان اقبل جماعه منهم على دراسه كتب الفلسفة مما وقع اليهم عن اليونان وغيرهم نبغت لهم شؤون اخرى من الكلام فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظراً صرفاً وبين الدين على كونه يقيناً محظاً واختلفت بهذا اراؤهم في وجه اعجاز القران فقالوا ان العرب اذا عجزوا ان ياتوا بمثل القران ما كان عجزهم لأمر ذاتي في الفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان ان الله تعالى صرفهم عن ان ياتوا بمثله ، وهذا يدعو الى التشكيك ثم الدعوى بانه من صنع النبي ﷺ وهذا يسير في احتمالات تنافي الواقع الى توهين لأمر القران الى ادعاء انه ليس من عند الله سبحانه وتعالى ، واشهر رجال المعتزلة هو (النظام) الذي كان يرى ان الاعجاز كان بالصرفة وهي ان الله صرف العرب عن معارضة القران مع قدرتهم عليها ذلك بان صرف دواعيهم فهي اذن امراً خارقاً للعادة ، وقد تابعه تلميذه (الجاحظ) من خلال هدم دواعي المغرضين واثبات اعجاز القران كلامياً وبلاغياً ولكنه يختلف عنه بالمنهج ، فالصرفة عنده ايضاً من وجوه الاعجاز ولكن تاتي مرتبتها بعد التحدي والتجربة والفشل ، ثم الاعتراف بالعجز وهنا ياتي لطف الله للناس من ان يطمع في القران طامع كما علم الله ان الناس لايدركون مصالحهم بنفسهم ولايشعرون بعواقب امورهم ، لذلك صرف اوهام المشاغبين عن العبث بمقدراتهم .

abstract:

When the views of Nonconformists emerged after Accept a group of them to study the books of philosophy, which signed them for Greece and other Nbgt them other matters of speech Vmzjoa between that philosophy on

being given purely and between religion on being a certainty Mahza differed this views in the face of miracle s in the Holy They said that if the Arabs unable to bring for such Koran was unable to command a self in his words and meanings and weaving and organized, but it was that God sent them away from that come in his ideals, and this calls into question then the case that it is making the Prophet Allah bless him and his family and him and this is going in the probability contrary to fact to the attenuation to the order of the Koran to claim that he is not from God Almighty, and famously Mu'tazila is the (system), who saw that the miracle was Babfah namely, that God Arabs exchange for opposition to the Koran with the ability it so that the exchange Deém These Pure is extraordinary, has subsidiaries disciple (bigeye) through the demolition of reasons malevolent and prove miracles in the Holy verbal and rhetorical, but it differs in approach, Vabfah has also faces miracle, but come in rank after the challenge, experience and failure, then the recognition of helplessness and here comes God's kindness to the people of that coveted in the Koran greedy as God knew that the peoplefor themselves and their interests do not realize the consequences of their own affairs Aaharon, so riotous exchange illusions about tampering Bmekdrathm.

مقدمة :

تعد نظرية الصرفة من النظريات الاقل شيوعاً في الفكر الاسلامي والتي جاءت لتعالج موضوعاً واسعاً شغل بال الفلاسفة والمتكلمين والعلماء على حداً سواء الا وهو موضوع تفسير الاعجاز القرآني .

ولكن فكرة الصرفة هذه جاءت بصدد اثبات بان القرآن منزل من قبل الله سبحانه وتعالى وليس من اصطناع احد من الانبياء او البشر ، لذلك فهي احد الادلة التي تبين اعجاز القرآن بمنع العرب عن معارضته منعاً قهرياً عن ان ياتوا بمثله وصرفهم عن صرفاً مقصوداً يدركون معه انهم معجزون امامه على الرغم من وفرة قدراتهم البيانية وبراعتهم في القول .

وهكذا فقد استهوى البحث عند المعتزلة في رؤيتهم لمسألة الصرفة وذلك في مبحثين : الاول ابراهيم بن سيار النظام الذي شاعت عنده فكرة الصرفة ، والمبحث الثاني تلميذه عمر بن بحر الجاحظ الذي تابع استاذه في نفس القول مع ذكره للادلة التي تثبت ذلك .

تمهيد :

اولاً : نظرة تمهيدية حول القول بالصرفة

عرف العرب انهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، وعللوا عجزهم بما استرعاهم ما فيه من حلاوة اللفظ ، وطلاوة المعنى والتركيب ، وعمق ما اشتمل عليه ، فهو مغدق في جذوره ، كلما تكشف القارىء عن عمقه رأى ما لا يصل إليه البشر ، وهذا امر ظاهر (١) في كثير من آيات القرآن الكريم منها : ((فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)) (٢) قوله تعالى : ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) (٣) ، و قوله تعالى : ((وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) (٤)

ولكن بعض الناس الذين تسيطر على عقولهم الفلسفة ، ولا تكون فيها ثمرة ناضجة قد يتجهون بها الى كل ما يرونه بدئياً في التفكير سواء اكان متصلا بالحق المجرد ام لم يكن متصلا به، وسواء اكان متفقا مع الايمان والواقع ام لم يكن ، بل إن المتفلسفين ربما اتجهوا الى الفكرة ، لا لأصالتها ، ولكن لغرابتها ، ولا لأنها لابد منها لتحقيق الحق وابطال الباطل ، ولكن للترف العقلي ، فلا يفرقون بين امر يتصل بالايمان ، وأمر لا صلة له بالايمان (٥) .

ومع ذلك فان اول طعن في القرآن ظهر في مقالة تعزى الى رجل يهودي يسمى لبيد بن الاعصم (٦) أنه قال : إن التوراة مخلوقة ، فالقرآن كذلك مخلوق (٧) ، وذكر أن ابن اخته طالوت اشاع قوله هذا في الناس ، فدان به بيان بن سمعان (٨) ، الذي تنسب اليه الفرقة البيانية ، وتلقاه عنه الجعد بن درهم ، مؤدب مروان بن محمد ، آخر خليفة اموي ، وكان متهما بالزندقة ، وفحش الرأي واللسان ، ونسب اليه أنه اول من صرّح بالحملة على القرآن ، والرد عليه ، وانكار بعض ما ورد فيه ، وبأن فصاحته غير معجزة ، وبأن الناس يقدرون على مثلها وعلى ما هو خير منها ، وذلك فضلا عن قوله بخلق القرآن (٩)

ولما انتقلت الخلافة من الامويين الى العباسيين زاد اختلاط الاعاجم بالعرب المسلمين ، وكان اكثر الخلفاء العباسيين يتسامحون في الامور الدينية وفي كل شيء الا فيما يتعلق بامور السياسة والملك . وهكذا لما كانت حرية الرأي محدودة فقد وجد في اوآخر العصر الاموي وبداية العصر

العباسي جماعة من المفكرين الاحرار ممن تختلف درجة تفكيرهم الحر قوة وضعفا (١٠)، وكان من اشهرهم ابن المقفع(١١) الذي اتهم بمعارضة القرآن . (١٢)

ثم لما ظهرت آراء المعتزلة بعد أن اقبل جماعة منهم على دراسة كتب الفلسفة مما وقع اليهم عن اليونان وغيرهم نبغت لهم شؤون اخرى من الكلام ، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظرا صرفا ، وبين الدين على كونه يقينا محضا ، وتغلغلوا في ذلك حتى خالف بعضهم بعضا بمقدار ما يختلفون في الذكاء وبعد النظر ، فتفرقوا عشر فرق ، واختلفت بهذا آراؤهم في وجه اعجاز القرآن اختلافا يقوم بعضه على بعض ، فيبدا فارغا وينتهي كما بدا وان كثر في ذات نفسه (١٣).

هذا وان بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على اقوال (١٤) البراهمة (١٥) في كتبهم التي تشتمل على مجموعة من الاشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم ، ويقول جمهور علمائهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ؛ لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها (١٦)

ويوضح ابو الريحان البيروني (١٧) ذلك بقوله : ((إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم ان ياتوا بامثالها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها)) (١٨)

ولم يبين (البيروني) وجه المنع اهو منع تكليفي يسبقه الايمان بهذه الكتب وتكون دلائل وجوب الايمان من نواح اخرى ، ام هو منع تكويني بمعنى ان براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن ان ياتوا بمثلها ، والاخير هو الظاهر ؛ لأنه يتفق مع قول جمهور علمائهم ، وما اشتهروا به من أن القول بالصرفة نبع في واديهم ، لذلك عندما دخلت الافكار الهندية في عهد (ابي جعفر المنصور) ومن والاه من حكام بني العباس ، تلقف الذين يحبون كل وافد من الافكار ويركنون الى الاستغراب في اقوالهم فدفعتهم الفلسفة الى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبقوه على القرآن ، وإن كان لا ينطبق عليه ، فقال قائلهم : إن العرب اذا عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لامر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه بل كان لان الله تعالى صرفهم عن ان ياتوا بمثله . (١٩)

وان رواج تلك الفكرة يؤدي الى امرين :

الاول - إن القرآن الكريم ليس في درجة عالية من البلاغة والفصاحة حتى تمنع محاكاته ، وتعجز القدرة البشرية عن أن يؤتى بمثله فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية (٢٠) ، بل لأمر خارجي ، وعلى هذا المذهب عموم المعتزلة الا النظام ، وهشام الفوطي ، وعباد بن سليمان (٢١) .

والثاني - الحكم بأن كلام الناس لا يزيد عليه شيئاً في بلاغته او في معانيه (٢٢) وذهب إلى هذا الرأي الجاحظ من المعتزلة ، والباقلاني من الاشاعرة (٢٣) .

اذن نستنتج من هذا أن مذهب الصرفة قد وجد من يقوله من علماء الفلسفة الكلامية وغيرها ، بل وجد من يقوله من بين الذين انكروا الرأي في الفقه ، وهو (النظام) الذي يعتبر من ابلغ الكتاب والشعراء .(٢٤)

ثم موقف الباقلاني (ت سنة ٤٠٣ هـ) (٢٥) في كيفية معرفة وجه اعجازالقران والطريق الذي سلكه فيه قائلاً :((فإن قيل فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في اجناس الفصاحات ، وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه بوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القران قادرا ، وانما يصرفه عنه ضرب من الصرف ، او يمنعه من الاتيان بمثله ضرب من المنع ، او تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه ، ليتكامل ما اراده الله تعالى من الدلالة ويحصل ما قصده من ايجاب الحجة لان من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الاولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الاية والسورة)) (٢٦)

يلاحظ أن القائلين بهذا القول يشككون في مرتبة القرآن وكونه من عند الله تعالى من غير ان يقدموا دليلا ، بل إن القصد الذي يبدو من لحن القول والدعوى هو التشكيك المجرد في علو البلاغة القرانية ، ومن وراء ذلك التشكيك ما يريدونه من توهين ثم دعاوى بأنه من صنع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهكذا يسير الخط من احتمالات تنافي الواقع الى توهين لامر القرآن الى ادعاء انه ليس من عندالله (٢٧)

ثانياً :الصرفة لغة واصطلاحاً

الصرفة في اللغة : اشتقت لفظة الصرفة من المصدر (صرف) ، والذي جاءت ببيانات وتوضيحات متعددة على لسان اللغوييون ؛ منها :

١ ـ قول الخليل بن احمد الفراهيدي : الصرف : ان تصرف انساناً على وجهٍ يريده الى مصرفٍ غير ذلك (٢٨)، ومثل ذلك فضل الدرهم على الدرهم في القيمة ، ومعنى الصرف عنده شيء صرف الى شيء ، كأن الدينار صرف الى الدراهم ، اي رجع اليها اذا اخذت بدله ؛ ومنه اشتق اسم الصيرفي لتصريفه احدهما الى الآخر ، وقال تصريف الدراهم في البياعات كلها انفاقها (٢٩). وقد جاء اللفظ في الشعر(صياريف) كقول الفرزدق (٣٠) :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفى الدراهيم تنقاد الصياريف (٣١)

٢ ـ وقول ابن فارس الرازي : صرف ، الصاد والراء والفاء ، معظم بابه يدل على رجع الشيء . من ذلك صرفت القوم صرفاً وانصرفوا ، اذا رجعتهم فرجعوا (٣٢) والصرفة خرزة من الخرز التي تذكر في الأخذ ، اي يؤخذ بها للرجال ، وسميت بذلك كأنهم يصرفون بها القلب عن الذي يريده منها (٣٣) او يستعطف بها الرجال يصرفون بها عن مذاهبهم ووجوههم (٣٤)

٣ ـ وقول الراغب الاصبهاني : الصرف رد الشيء من حالةٍ الى حالة ، او ابداله بغيره ، يقال : صرفته فانصرف.(٣٥) والصرفة منزل من منازل القمر نجم واحد نير يتلو الزبرة ، خلف خراتي الاسد (قلب الاسد) اذا طلع امام الفجر فذلك الخريف ، واذا غاب مع طلوع الفجر فذلك اول الربيع ، والعرب تقول الصرفة ناب الدهر لأنها تفتر عن البرد او عن الحر في الحالتين ، اي سميت بذلك لانصراف الحر واقبال البرد(٣٦) ٤ ـ وقول ابن منظور : الصرف : رد الشيء عن وجهه ، صرفه يصرفه صرفا فانصرف وصارف نفسه عن الشيء : صرفها عنه (٣٧) (والتصريف : اعمال الشيء في غير وجه ، كأنه يصرفه عن وجه الى وجه . وتصاريف الامور : تخاليفها (٣٨). ومنه تصاريف الرياح والسحاب ، اي تصريف الرياح صرفها من جهة الى جهة ، وكذلك تصريف السيول والخيول والامور والآيات ، وتصريف الرياح جعلها جنوبا وشمالاً ، وصبا ودبورا فجعلها ضروبا في اجناسها . فصرف الدهر حدثانه ونوائبه ،وهو اسم له ؛ لانه يصرف الاشياء عن وجوهها (٣٩)

وبالرغم من اهتمام اهل اللغة في توضيح معنى الصرفة وبيان اشتقاقها الا انهم يتفقون في حقيقة واحدة في المعنى الا وهو (رده) ، اي الاكثر استعماله في رد العزائم (٤٠) ، والدليل على ذلك وجود دلالاتها وبيانات تفسيرها في القرآن الكريم (٤١) منها قوله تعالى : ((وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ))(٤٢) ، فمعنى انصرفوا ، اي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه ، وقيل انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا . و صرف الله قلوبهم ، اي اضلهم الله مجازاة على فعلهم (٤٣) ، ووجه كلمة صرف هنا جاءت بمعنى أمال ، اي أمال الله قلوبهم (٤٤) ، وكذلك قوله تعالى : ((سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)) (٤٥) ، اي اجعل جزاءهم الاضلال عن هداية آياتي (٤٦) ، وقوله عز وجل : ((فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)) (٤٧) اي حيلة ولانصرة (٤٨) ، اي لا يقدرون ان يصرفوا عن انفسهم العذاب ، ولا ان ينصروا نفسهم او ان يصرفوا انفسهم عن النار (٤٩) ، وكذلك قوله تعالى : ((وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)) (٥٠) ، اي بينا لهم وكررنا من كل شيء ، وهو كالمثل في حسنه وغرابته قد احتاجوا اليه في دينهم ودنياهم فلم يرضوا الا كفوراً وجحوداً (٥١).

ومن الدلائل ايضاً وجود الصرف في الحديث مع العدل بمعانٍ عديدة منها : التوبة والعدل والميل والاستقامة والقيمة والفدية والنافلة والفريضة وغيرها ، واصله في الفدية (٥٢) ، اي اصل العدل في الفدية كأن يقال : لم يقبلوا منهم صرفاً ولا عدلاً ، اي لم يأخذوا منهم دية ، ولم يقتلوا بقتيلهم رجلاً واحداً ، اي طلبوا منهم أكثر من ذلك ، وكانت العرب تقتل الرجلين والثلاثة بالرجل الواحد ، فاذا قتلوا رجلاً برجل فذلك العدل فيهم ، واذا اخذوا ديةً فقد انصرفوا عن الدم الى غيره ، فصرفوا ذلك صرفاً ، فالقيمة صرف ؛ لأن الشيء يقوم بغير صفته ، ويعدل بما كان في صفته ، ثم جعل بعد في كل شيء ، حتى صار مثلاً فيمن لم يؤخذ منه الشيء الذي يجب عليه ، والزم اكثر منه ، فتأمل ذلك (٥٣).

وفي الحديث ايضا أن النبي (ﷺ) ، ذكر المدينة ، فقال : من احدث فيها حدثا او آوى محدثا لايقبل منه صرف ولا عدل (٥٤) ، اي توبة وفدية ، او نافلة وفريضة (٥٥) ؛ بناء على قوله تعالى : ((وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) (٥٦)

ويبدو ان التعبير (صرف) قد دخل في العصر الاسلامي حوالي آخر القرن الاول الهجري ، وتتصل بذلك تلك الحقيقة ، وهي أن الامام مالك بن انس ومعه المالكية ميزوا تمييزاً دقيقاً بين تغيير النقد (الصرف) وبين مبادلة ذهب بذهب او فضة بفضة (مراطلة بالوزن ومبادلة بالمعيار او العدد) الامر الذي لاتفعله المذاهب الفقهية الاخرى ، وليس ثمة تعبير مشابهة إلا كلمة موازنة التي وردت عن الشافعي .(٥٧)

ولكن هناك رواية عن احد الائمة عليهم السلام ، وهو الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) : المعنى كأن الامام عليه السلام قال لسدير : ما لك ولقول الحسن البصري اما علمت ان اصحاب الكهف كانوا صيارفة الكلام ونقدة الاقاويل ، فانتقدوا ما قرع اسماعهم فاتبعوا الحق ، ورفضوا الباطل ، ولم يسمعوا أفائك اهل الضلال ، واكاذيب رهط السفاهة ، فانت ايضا كن صيرفيا لما يبلغك من الاقاويل ، ناقدًا منتقداً آخذاً بالحق رافضاً للباطل ، وليس المراد أنهم كانوا صيارفة الدراهم ، كما هو المتبادر الى بعض الاوهام ؛ لأنهم كانوا فتية من اشراف الروم مع عظم شأنهم وكبر خطرهم . ويكون في الرواية دلالة على جواز الصرافة المخصوصة رداً على الحسن حيث اعتقد عدم جواز فعلها كما دل عليه قوله : كذب الحسن ، خذ سواء واعط سواء ، فاذا حضر وقت الصلاة فدع ما في يدك وانهض الى الصلاة وحينئذ فلا ينافي كونها من الحرف المذمومة اتصاف اهل الكهف بها مع كونهم اشرافاً ؛ لأن شرع من تقدمنا غير شرعنا . فلعلها فيه لك تكن مكروهة ، واذا كان الامر كذلك حملنا الصرف على معناه الحقيقي دون غيره ، ولا حاجة الى التكلف (٥٨)

اما اصطلاح الصرف والصرفة عند المتكلمين الاوائل ، ومن تبعهم من الكتاب والادباء (٥٩) فهي صرف الهمم عن المعارضة (٦٠) ، وبذلك تعتبر الصرفة احد وجوه الاعجاز القائم في صرف الناس عن معارضة القرآن الكريم مع عدم استحالة الإتيان بمثله من قبلهم بحسب قدراتهم وامكانياتهم الذاتية لولا الصرفة (٦١) ، اي صرف الله العرب عن معارضته ، في حين أنه لم

يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية ، وضربوا لذلك مثلاً ، فقالوا : إن الانسان كثيراً ما يترك عملاً هو من جنس أفعاله الاختيارية ، ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته ، اما لان البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، او أن الكسل او الصدود اصابه فأقعد همته وثبط عزيمته ، او أن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه فعطل آلاته ووسائله ، وعاق قدرته قهراً عنه ، على رغم انبعاث همته نحوه ، وتوجه ارادته اليه . (٦٢)

وبعبارة اخرى إن اعجازه هو الصرفة ، وهو ان الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم أن يأتو بسورة من مثله ، فلم تحركهم انفة التحدي ، فصبروا على نقض العجز ، فلم يعارضوه ، وهم فصحاء العرب مع توفر دواعيهم على ابطاله ، وبذل نفوسهم في قتاله ، فصار بذلك معجزا لخروجه عن العادة كخروج سائر المعجزات عنها (٦٣).

بهذا التوجيه يعزى القول بالصرفة الى مذهب ابي اسحاق الاسفراييني (٦٤) الاشعري ، ومذهب النظام المعتزلي وكلاهما من اهل السنة (٦٥) ، والشريف المرتضى من الشيعة (٦٦) ، الذين قالوا : إن الله صرف همم المتحدين عن معارضته مع قدرتهم عليها ، وذلك اما بسلب قدرهم ، او بسلب دواعيهم ، او بسلب العلوم التي لابد منها في الاتيان بمثل القرآن . بمعنى أنها لم تكن حاصلة لهم ، او بمعنى انها كانت حاصلة فازالها الله (٦٧).

وعلى ذلك كان يعتمد بعض اهل العلم على ان القران معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي يظهر منها للعقول .(٦٨)

والطريف أن ممن اعتقدوا بالصرفة من اصحاب ابي الحسن الاشعري (٦٩) ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الاسفراييني ، الفقيه الشافعي الاشعري ، المتوفى سنة ٤١٨ هـ ، لكنه يذهب الى ان الاعجاز يكون من جهة الصرفة والاخبار عن الغيب معا .(٧٠)

وقال المرتضى من الشيعة : بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في المعارضة ، يعني أن المعارضة والإتيان بالمثل يحتاج الى علوم يقتدر بها عليها ، وكانت تلك العلوم حاصلة ، لكنه تعالى سلبها عنهم ، فلم يبق لهم قدرة عليها (٧١) . ليجيئوا بمثل القرآن . فكأنه يقول : إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والاسلوب ولايستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته الفاظ القرآن من المعاني (٧٢)

وكذلك اعتنق مذهب الصرفة صراحة ابو محمد علي بن احمد بن حزم الاندلسي الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، وخلاصة قوله : ((إن القرآن معجزة خالدة ، لايقدر احد على المجيء بمثلها ابدا ؛ لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك .. وهذا هو الذي جاء به النص ، والذي عجز عنه اهل الارض ، منذ اربعمائة واربعين عاما ، والى ان يرث الارض ومن عليها))(٧٣)

ويقول التفتازاني في شرح المقاصد : وعند الكثيرين الصرفة ، وهي ان الله تعالى صرف العقول عن المعارضة مع القدرة عليها ، ورد بأن فصحاء العرب انما كانوا يتعجبون من ذلك ، لا من عدم المعارضة مع سهولتها ، وبأن ترك كمال البلاغة ادخل في الاعجاز بالصرفة (٧٤) ، والاستدلال بقوله تعالى : ((قل لئن اجتمعت الجن والانس على ان يأتوا بمثل هذا القرأن لاياتون بمثله)) (٧٥)

لذلك يمكن تفسير كلام القائلين بالصرفة بأن القرآن يتكون من مجموعة من الكلمات والحروف قد نظمت بنظم خاص . وهذا النظم مهما علا شانه وفارق سائر نظوم الكلام ، فانه بنفسه لايمكن ان يكون معجزاً بحيث يعجز من تحدي به عن الاتيان بما يقاربه . نعم انه يعد معجزة ومعجزاً حينما يسلب الله سبحانه وتعالى دواعي الكفار وغيرهم عن معارضته ، فاعجاز نص القرآن لا لنفسه وذاته ، وانما لسبب خارجي طرأ على بعض الناس ، وهم الذين قصدوا المعارضة وحاولوا اتيان ما يقاربه في النظم ، ولولا ذلك لاستطاعوا مجاراة سور القرآن وآياته ، والإتيان بما يقاربهما في الشبه . وهذا الطارىء الخارجي ، وتثبيط عزائم القاصدين للمجاراة ، وقبول التحدي ، هو في نفسه اعجاز خارق للعادة (٧٦). وآية دالة على صدق نبوته (صلى الله علية واله وسلم) ، وهذا المذهب فضلاً عن مخالفته لآراء جمهور العلماء فانه خطير في نفسه ، قد يوجب طعنا في الدين ، والتشنيع بمعجزة سيد المرسلين (صلى الله علية واله وسلم) الطاهرين ان لا آية في جوهر القرآن ولا معجزة في ذاته ، وانما هو لأمر خارج هو الجبر وسلب الاختيار ، وهو ينافي الاختيار الذي هو غاية التشريع والتكليف ، وغير ذلك من التوالي الفاسدة التي خلفها القول بالصرفة .(٧٧)

وقد وضح ابو القاسم البلخي (٧٨) مذهب هؤلاء القائلين بالصرفة بقوله : ((واحتج الذين ذهبوا الى أن نظمه ـ اي القرآن ـ ليس بمعجز ، الإ أن الله تعالى أعجز عنه ، فأنه لو لم يعجز عنه لكان مقدورا عليه ، بانه حروف قد جعل بعضها الى جنب بعض ، واذا كان الانسان قادر

على ان يقول ((الحمد)) فهو قادر على ان يقول ((لله)) ، ثم كذلك القول في كل حرف . واذا كان هكذا فالجميع مقدور عليه ، لولا ان الله تعالى اعجز عنه)) (٧٩)

وعلى الجملة فان القول بالصرفة لايختلف عن قول العرب فيه : ((فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)) (٨٠) ، وهذا زعمٌ رده الله على اهله واكذبهم فيه ، وجعل القول به ضرباً من العمى (81) ، كما في قوله تعالى ((أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)) (٨٢) فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد . (٨٣)

ولخطورة هذا الرأي من حيث آثاره وتبعاته وما يترتب عليه من القول بان نص القرآن لايعد آية ومعجزة في جوهره وذاته ، و لا علما لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ، وانما هو آية من جهة عارض خارجي عرض على المتحدى به ، فسلبه القدرة على المعارضة جبرا ، بعد ان سلب اختياره وارادته ، ولتباين المذاهب الاعتقادية بين المتكلمين ؛ واجه القول بالصرفة استنكارا واسعا منذ ان خرج الى الاوساط العلمية ببغداد في بدايات القرن الثالث الهجري ، فانبرى جماعة للرد عليه ، والتشهير به ، والطعن بادلته ، وتسفيه قائليه ، واستمر الأمر على ذلك حتى يومنا هذا ، وسوف نشير الى بعض من عارض هذا المذهب من المتكلمين والادباء والمفسرين والفقهاء من المتقدمين والمتاخرين . عند البحث عن ادلة ابطال القول بالصرفة ..(٨٤)

وعلى ذلك اختلفت الانظار في تفسير مذهب الصرفة على ما اراده اصحابه ، الى تفسيرات ثلاثة ، لما فيها من الاجمال وكثرة الاحتمال :

الاول ـ ان يريدوا بالصرفة أن الله تعالى صرفهم عنها مع قدرتهم عليها ، وذلك بان صرف دواعيهم اليها مع كونهم مجبولين عليها ، خصوصا عند توفر الاسباب الداعية في حقهم من التقريع بالعجز ، والاستنزال عن الرياسات ، والتكليف وبالانقياد ، فهذا الصرف خارق للعادة ، فيكون معجزاً . وهذا ما ذهب اليه الاسفرايني من اهل السنة ، والنظام من المعتزلة (٨٥).

والثاني ـ أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالالجاء على جهة القسر عن المعارضة مع كونهم قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك ، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة ، وحاصل الامر في هذة المقالة : انهم قادرون على ايجاد المعارضة للقرآن ، الا ان الله منعهم من ذلك (٨٦).

والثالث : ان يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي يحتاجون اليها في المعارضة ، يعني أن المعارضة و الاتيان بمثل القرآن يحتاج الى علوم يقتدر بها عليها ، وكانت تلك العلوم حاصلة لهم لكن ـ الله سبحانه وتعالى ـ سلبها عنهم فلم يبق لهم قدرة عليها ، وينسب هذا القول الى المرتضى . ثم ان سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين : احدهما أن يقال : إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار ، لكن الله تعالى ازالها عن افئدتهم ومحاها عنهم ، وثانيهما أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها مخافة ان تحصل المعارضة . (٨٧)

والمعقول من هذه التفاسير ـ حسب رأي محمد هادي معرفة ـ هو التفسير الأخير ، بمعنى انهم افتقدوا وسائل المعارضة لقصورهم بالذات من جانب ، وشموخ موضع القرآن من جانب اخر . ثم انه يحتمل ارادة هذا المعنى ، من خلال عرض كلامهم ـ القاضي عضد الدين الايجي في(المواقف)والسيد الشريف الجرجاني (في شرح المواقف) ـ ولاسيما كلام الشريف المرتضى ما ينبه عليه (٨٨).

وقد نظر التفتازاني في صحة التفاسير الثلاثة ، وقال : الصرفة اما بسلب قدرتهم او بسلب دواعيهم او بسلب العلوم التي لابد منها في الاتيان بمثل القرأن ، بمعنى انها لم تكن حاصلة لهم او بمعنى انها كانت حاصلة فازالها الله . وهذا هو المختار عن المرتضى وتحقيقه (٨٩) ، او إن ما دعاهم الى هذا القول : إنهم توهموا أن العرب ـ آنذاك ـ كان عندهم العلم بنظم القرآن والعلم بكيفية تاليف كلام يساويه او يدانيه ، والمعتاد ان من كان عنده هذان العلمان يتمكن من الاتيان بالمثل ، ومع ذلك لم يقدروا على المعارضة والاتيان بالمثل رغم محاولتهم واحتياجهم الى ذلك في مقارعتهم له ، فلابد انه تعالى ازال عن قلوبهم تلك العلوم واعجزهم عن المعارضة وصرفهم عن ذلك .(٩٠) .

لكن هذا التوهم غير صحيح لأننا لا نسلم أن العارف بوجوه البلاغة ونظم الكلام يمكنه الاتيان بمثله . والبلاغة هي صياغة كلام مطابق لمقتضى الحال ، وهو امر يختلف باختلاف مقتضيات الاحوال . ولذا مهما بلغت قدرات البشر فانهم لم يتمكنون من تاليف كلام على نظم يتوافق مع ما يدركونه ويلاحظونه او يهتمون به من مقتضيات الاحوال .

اما القرآن الكريم الذي حوى من المعارف فأنه لا يمكن أن يحويه كلام احد ، وخاطب البشر كل البشر بلسان واحد ، فهو في آن واحد يراعي مقتضى حال العوام والخواص البسطاء والبلغاء ، الراسخين في العلم ومن لم يؤتوا الا الحظ القليل ، وضمن الكلام الواحد من المعارف والمعاني ما لا ينقضي ولا يحد ، وهذا هو الاعجاز البلاغي الخاص بالقرآن .(٩١)

معنى القول بالصرفة عند المعتزلة :

تعد قضية الصرفة احدى القضايا البارزة في جهود المعتزلة عند بحثهم في مسألة الاعجاز ، اذ وجد في دوائرهم من يضعف او يرفض الاعتقاد بعدم القدرة على الاتيان بمثل القرآن (٩٢) ، كما في قوله تعالى ((قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا))(٩٣) ، بل الاعتقاد باعجازه ، بل القدرة على احسن منه ، اعتمادا على وجهات من النظر العقلي ، بيد ان مما يخالف الواقع الى ذلك الغض من شان القرأن في مقابلة الاشادة باحكام نظمه ، وعلى انه مبدا مدرسي عام للمعتزلة (٩٤).

المبحث الاولً - نظرية النظام في القول بالصرفة

يعد ابو اسحاق ابراهيم بن سيارالنظام ، فيلسوف المعتزلة الاول ، اعمقهم تفكيرا ، واشدهم جراة ، واكثرهم استقلالا في الرأي ، ابن اخت العلاف وتلميذه وعنه اخذ الاعتزال ، ثم خرج عليه واستقل بمذهبه ، وسمي بالنظام ، لان المعتزلة يوهمون انه كان نظاما للكلام المنثور

والشعر الموزون ، وانما كان ينظم الخرز في سوق البصرة التي نشا بها ، ثم طاف في حواضر الاسلام الثقافية ، حتى استطاع ان يحيط بالمذاهب والآراء التي كانت تتردد حوله (٩٥) .

ويقال : أنه معجب بقول البراهمة بابطال النبوات ، ولم يجسر على اظهار هذا القول خوفا من السيف ، فانكر اعجاز القرآن في نظمه ، وانكر ما روي من معجزات نبينا (ص) ، من انشقاق القمر ، وتسبيح الحصى في يده ، ونبوع الماء من بين اصابعه (٩٦) .

وهذه شهادة من الجاحظ الذي عد النظام ذا شخصية فلسفية معتزلية لها اثرها في المتكلمين وبخاصة في متكلمي المعتزلة ؛ اذ أنه قد انتهج لهم سبلا ، وفتق لهم اموراً ، واختصر لهم ابوابا ظهرت فيها النعمة ، وشملتهم بها المنفعة (٩٧) .

اما بخصوص القول بالصرفة في اعجاز القرآن الكريم عند المعتزلة نلاحظ ان (النظام) اول من جاهر به ، واعلنه ودعا اليه ، كأنها مسألة من مسائل علم الكلام ، ونقول : إنه اول من جهر به ولا نقول انه اول من فكر فيه ، او اول من ابتدا القول به ؛ لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهي تتكون في خلاياها ، بل لاتعرف الا بعد ان تظهر ، ويجاهر بها . جاهر بها ، وكان ذا فصح وبيان وحجة وبرهان ، وان لم يكن مستقيم الفكر (٩٨) .

وقد شاعت هذه النسبة اليه حتى غدت من الامور الثابتة في انه اول من قال بالصرفة ، وانه مبتدع هذه الفكرة ، ولكن من الصعب الاطمئنان الى هذه النسبة ، ذلك لأنها جاءت من كتب مخالفيه من(٩٩) الاشاعرة (١٠٠) والمجبرة (١٠١) والحشوية (١٠٢) الذين يحاولون الطعن في معارضيهم باقوال تنافي المعتقد العام عند عامة المسلمين او تستلزم منافاته ، خاصة اذا لاحظنا أنه كان للنظام راي خاص ـ يخالف به المذاهب السنية والحشوية ـ في شرعية خلافة الخلفاء ، وتفضيل امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام على غيره ، وامور اخرى تعد من ركائز مذاهب السنة .(١٠٣)

ومهما كانت درجة صحة النسبة ، فان الثابت هو بروزاصل الفكرة في تلك الفترة ، وان هناك من المتكلمين (١٠٤) ممن ذهبوا الى القول بها ، اي القول بالصرفة ، واشهرهم النظام الذي كان يقول : إن نظم القرآن وحسن تاليف كلماته ليس بمعجزة النبي ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة ... ا و ان نظم القرآن وحسن تاليف اياته ، فان العباد قادرون على مثله وماهو احسن

منه في النظم والتاليف (١٠٥) كذلك ذهب عباد بن سليمان (١٠٦) والفوطي (١٠٧) الى الرأي نفسه ، ففي رايهما ليس نظم القران وتاليفه اعجازاً ، وانما يمكن معارضته ، وانما صرفوا عنه ضربا من الصرف (١٠٨) .

ويؤكد ابن المرتضى نسبة هذا القول الى النظام جاءت من عبد القاهر البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) التي هي الفضيحة الخامسة عشرة من فضائح النظام المشهورة (١٠٩) ، وعنها يقول البغدادي : ولم يكن غرض منكر اعجاز القران الا انكار نبوة من تحدى العرب بان يعارضوه بمثله (١١٠) ، واشار الخياط في كتابه (الانتصار) الى نفس هذه الفكرة وهو عن ابن الراوندي الذي نقل اقواله وطعونه على النظام في كتابه (تمهيدا للرد عليه وتكذيب ما نسب الى النظام) (١١١) قال : وكان يزعم ان نظم القران وتاليفه بحجة للنبي (ص) وان الخلق يقدرون على مثله (١١٢)

وكان دليل البغدادي وابن الراوندي على انكار النظام للاعجاز القراني قول الله عز وجل ((قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)) (١١٣) ، ولهذا رد الخياط على اقوال البغدادي والراوندي مؤكداً رأي المعتزلة في الاعجاز وهو ان القران حجة للنبي (ﷺ) على نبوته من غير وجه ، فأحدها ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، واخباره بما في نفوس قوم وبما سيقولونه ، وهذا وما اشبهه في القرآن كثير (١١٤) ، مثل قوله تعالى :((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) (١١٥) ، و مثل قوله :((قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)) (١١٦) وقوله : ((الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)) (١١٧) وقوله : ((قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ))(١١٨)

، وقوله : ((وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ))(١١٩) ، وقوله : ((فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ))(١٢٠)

اذن فالقرآن عند (النظام) حجة على نبوة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) من هذه الوجوه وما اشبهها ، واياها عني الله عز وجل (١٢١) بقوله : ((قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)) (١٢٢) فالخياط اذن يتابع (النظام) والمعتزلة الآخرين ، وهي كانت عقيدتهم جميعاً ، باعتبار ان اعجاز القرآن هو في ما يذكره للناس من حوادث الماضي والمستقبل والتي لم يكن الناس على علم بها الا من خلال الوحي الالهي (١٢٣)

وعلى هذا فقد عد النظام اعجاز القرآن يكون في مادة القرآن (في اخباره عن الغيوب) لا في صورته او اسلوبه ؛ لأن الناس قادرون على مثله نظماً وفصاحة وبلاغة (١٢٤).

وكذلك هناك مسألة اخرى وردت في مختلف كتب الفرق عن النظام ، يذكرها الاشعري في كتابه (مقالات الاسلاميين) ، قال : و قال النظام : الآية الاعجوبة في القرآن ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز ان يقدر عليه العباد ، لولا ان الله منعهم بمنع وعجزٍ احدثهما فيهم (١٢٥)

اذن يبدو من خلال عرض هذه الآراء أن تفاصيل مذهب النظام لم تكن معروفة على وجه الدقة ، وفقاً لتقريرات الاشعري والخياط والبغدادي ؛ إذ إنه لم يقل بان صرف الله الناس عن الاتيان بمثل القرآن معجزة والذي عرف فيما بعد بالصرفة اصطلاحا ، وانما ذكر النظام هذا الراي جوابا لمن يسأل السؤال الآتي : لماذ لم يقلد الاسلوب القرآني تقليدا ناجحا على الصعيد العملي مع انه قابل للتقليد(١٢٦) ، ولهذا يقول الشريف المرتضى : ((وقد حكي عن ابي اسحاق النظام القول بالصرفة من غير تحقيق لكيفيتها ، وكلام في نصرتها)) (١٢٧)

اما بالنسبة الى قول النظام فهو:(إن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان مقدورا لهم لكن عاقهم امر خارجي فصار كسائر المعجزات)(١٢٨)

وظاهر هذا القول هو ان النظام كان يرى ان الاعجاز كان بالصرفة وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القران مع قدرتهم عليها ، وذلك بان صرف دواعيهم اليها مع كونهم مجبولين عليها خصوصا عند توفر الاسباب الداعية في حقهم كالتقريع بالعجز والاستنزال عن الرياسات ، والتكليف بالانقياد . فهذا الصرف خارقا للعادة ، فيكون معجزا ، اي يكون الصرف هو المعجز لا القران نفسه(١٢٩)

ويتضح قول النظام من خلال بيان وجه الاعجاز الذي يخالف فيه اقوال جمهور العلماء ، وهو ان الآية والمعجزة في القرآن انما هي لجهة صرف الناس عن معارضته ، صرفهم الله تعالى عن أن يأتوا بحديث مثله ، وامسك بعزيمتهم دون القيام بمقابلته ، ولولا ذلك لاستطاعوا الاتيان بسورة مثله ، وهذا التثبيط في نفسه اعجاز خارق للعادة ، وآية دالة على صدق نبوته (صلى الله عليه واله) ، وهذا المذهب ـ فضلاً عن مخالفته لآراء جمهور العلماء ـ خطير في نفسه ، قد يوجب طعنا في الدين ، والتشنيع بمعجزة سيد المرسلين (صلى الله علية واله وسلم) الطاهرين ان لا آية في جوهر القرآن ولا معجزة في ذاته ، وانما هو لأمر خارج ، هو الجبر وسلب الاختيار ، وهو ينافي الاختيار الذي هو غاية التشريع والتكليف ، وغير ذلك من التوالي الفاسدة (١٣٠) التي خلفها القول بالصرفة ، الذي قال به النظام ، يصوبه فيه قوم ويشا يعه عليه آخرون ، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته وقيامه عليه وتقلده امره لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القران واسلوبه واعجازه اللغوي وما الى ذلك (١٣١).

اذن فذلك القول بالصرفة الذي يتلخص بقوله : ان الله سبحانه صرف العرب عن معارضته وسلب علومهم ، اذ نثرهم ونظمهم لا يخفى ما فيه من الفوائد ، يعني فصاحة بالغة تضاهي فصاحة القران (١٣٢) ، وقد صرح بذلك الشريف المرتضى ، استنادا الى قوله تعالى ـ حكاية عن العرب ـ : ((لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين)) (١٣٣) ، وهذا دلالة على ان العرب حسبت من نفسها القدرة على الاتيان بمثله سبكا وصياغة ، لولا أنه تعالى صرف هممهم عن النهوض لمقابلته ، وامسك بعزيمتهم دون القيام بمعارضته .، وهذا على حد ما جعل الله سلب زكريا عليه افضل السلام النطق ثلاثة ايام من غير علة آية . او فقدهم لتلك العلوم حسبما نبهُ عليه

في اخر مقالة متمسكا (١٣٤) بقوله تعالى : ((بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)) (١٣٥)

وهذا التفسير هو الارجح في نظر أصحاب الرأي ـ اي ما ذكره القاضي عضد الدين الايجي والشريف الجرجاني ـ اللذان فصلا رايه عن رأي الشريف المرتضى القائل بسلب العلوم (١٣٦). وبقول : آخر إن الله تعالى ما انزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الاحكام من الحلال والحرام والعرب انما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم (١٣٧) .

ويتأيد هذا المعنى ايضا بما جاء في عرض كلام تلميذه المتاثر برايه الجاحظ الذي قال : ورفع الله من اوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن (١٣٨) .

حتى جاء رايه الذي علمت في مذهب الصرفة دون قدره بل دون علمه ، بل دون لسانه ، وهو عندنا راي لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه ، لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه اذا عمدوا الى القول فيما لا يعرفون ؛ ليوهموا انهم قد عرفوا . وإلا فإن من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه ، وهو بعد قادر عليه مقارن له ، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان الا كعجزه هو عن البرهان ، اذ كان لم يعجزه عدم القدرة ، ولكن اعجزه القدر ، وهو لا يغالب ، والمرء ينسى ويذكر ، وقد يتراجع طبعه فترةً لا عجزاً ، وقد يعتريه السأم ويتخونه الملال ، فينصرف عن الشيء وهو له مطيق ، وذلك ليس احق بان يسمى عجزاً من ان يسمى تهاوناً ، ولا هو ادخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل الثقة (١٣٩).

أثر نظرية النظام في اقوال الاخرين

واذا توسعنا بالدراسة حول بعض آراء النظام سندرك جوانب لرأيه لا تظهر اذا اقتصرنا عليه بمفرده ، منها ان الانسان ـ عنده ـ حي مستطيع بنفسه لا بحياة ، واستطاعته هي غيره ، وتبقى الاستطاعة على الفعل حتى تحد ث به آفة ، وهذا الانسان لايقدر على ما لا يخطر بباله ، اي ان قدرة الانسان مقيدة بمدى علمه ومدى ما يخطر بباله ، فالقدرة تابعة للعلم

بل الارادة نفسها لا تاتي مرتبتها الا بعد مرتبة العلم ، فالانسان عند النظام يعلم الشيء ثم تريده نفسه ثم تقوم قدرته بتنفيذه (١٤٠) .

ولكن القاضي عبد الجبار يعطي للقضية عمقا اعمق ، وفهما انضج ، ويفتح لها بابا يتصل بقدرة الا نسان وبارادته ثم بعقله وبمنطقه يقول ((انا نقول ـ ان دواعيهم انصرفت عن المعارضة ، لعلمهم بانها غير ممكنة على ما دللنا عليه ، ولولا علمهم بذلك لم تكن لتنصرف دواعيهم ، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعا لمعرفتهم بانها متعذرة)) (١٤١).

ثم يقول ((واعلم ... ان أحد ما يتبين به عظم شأن القرآن في الاعجاز : انه لا وجه يطعن به الملحدة ، وسائر من خالف في نبوة محمد (ﷺ) ، الا وهو غير قادح في كونه معجزا ، بل يكشف عن وجه من وجوه الاعجاز ، لو صحت مطاعنهم ـ ويتميز بذلك من سائر المعجزات لأن وجوه القدح فيها لا تتضمن ـ ان صحت ـ كونه معجزا)) (١٤٢)

وبهذا الراي الذي اولاه القاضي اهتماما ـ تحولت الانظار عن الصرفة وعن المناقشات في تفريعها وتشقيقها ، وانفلق باب القول فيها ، وذلك بان المعارض حتى وان قوة على نفسه وجرب حظه في الطعن فلن يفلح في طمس دعوى الاعجاز وفشله ثابت باستدلال العقل وتجارب الاولين . (١٤٣)

اذن فالعجز ليس في القدرة الانسانية ، ولكن في استطاعة القدرة التي منحها الانسان ، فالمنحة التي منحها الله تعالى للانسان بذلت استطاعتها ، فاستطاعت كل الاغراض ، ثم لم تستطع القرآن . وقد حاولت وجربت ففشلت ؛ لأن المنحة محدودة ، والقدرة لها نهاية ، ولا حيلة معها ، فهكذا اراد المانح جل وعلا . ولو زاد في العطاء لزادت القدرة في الاستطاعة ولأتي على الانسان حين من الدهر وهو للقرآن مقلد ولآياته معارض (١٤٤) .

وبناء على ذلك ، فما لم يقدر عليه العبد فقد انصرف عنه لسبب ، قد يبرر التبرير المعقول وقد يشطح معه الخيال . والصرفة عند النظام هي انصراف اكثرمنها صرفة ، ورجوع بعد شعور بالعجز اكثر من تحويل للعجز الى اعجاز . والا لكان النظام يعترف للانسان بالقدرة وبعدم القدرة في آن واحد (١٤٥) ، وهذا ما يريده له ابن الراوندي الذي يقول : ((القدرة مع الفعل تصلح للشيء

وتركه في حال حدوثه ، وجائز كون الشيء في حال وجود تركه بان لايكون كان فتركه)) (١٤٦) ، وكذا اتباعه من الاشاعرة . الذين حرفوا عنه رايه في الصرفة (١٤٧)

اذن فرأي النظام في الصرفة هو المحصلة التلقائية لمذهب المعتزلة في العدل الالهي (١٤٨) ، اذ هو يرفض الاستماع الى طائفة من المفسرين للقرآن ويحذر منهم ، لانهم يجيبون في كل مسألة ، ويقولون بغير رواية على غير اساس ، ثم يذكر من يثق فيهم من المفسرين (١٤٩) ، وهو ايضا يذكر بلاغة القرآن فيما حكاه عنه تلميذه الجاحظ الذي قال : ((وقرأ بعض اصحابنا بحضرة ابي اسحاق)) (١٥٠) وقالوا بكلام الله تعالى: ((وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)) (١٥١) ، فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ((فقال رجل لأبي اسحاق انظر كيف قرن الضفادع الى الطوفان مع قوة الطوفان وغلبته ، قال ابو اسحق الضفادع اعجب في هذا الموضوع من الطوفان ، واذا أراد الله تعالى ان يصير الصفادع أضر من الطوفان فعل)) (١٥٢)

وقد شغل النظام الحياة الفكرية في حياته وبعد مماته ، وظل اثره على اعظم صورة لدى اكبر عدد من مفكري الاسلام ، ويبدو اثره النافذ اما بالأخذ عنه واما بالهجوم عليه ، واما مدرسته المعتزلية فقد كانت اكبر مدرسة كلامية في العالم الاسلامي (١٥٣) .

وهو ما سنراه من اثره في اقوال غيره من المفكرين . منهم الشريف المرتضى الا اننا نجد فرقا دقيقا بين راي النظام في الصرفة وراي المرتضى فالصرفة عند النظام عدم معارضتهم للقران مع قدرتهم عليها والصرفة عند المرتضى عدم قدرتهم عليها لانهم سلبوا مقوماتها وما يساعدهم من المعارف عليها بعد ان كانت متاصلة فيهم (١٥٤)

وكذلك الخفاجي الذي يرى ان هناك قولين في الخلاف الظاهر فيما به كان القران معجزا القول الاول خرق العادة بفصاحته وعلم الفصاحة ضروري للقائل بهذا حتى يعلم خرق العادة . والقول الثاني بصرف العرب عن معارضته مع انها في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم وهو يرى

ان مسيلمة لم يات بما يصح ان يسمى معارضة للقران لان كلامه خال من الفصاحة التي وقع التحدي بها في الاسلوب المخصوص (١٥٥)

والوجه الصحيح عند الخفاجي هو الصرفة وفي هذا يقول : ((واذا عدنا الى التحقيق وجدنا وجه اعجاز القران صرف العرب عن معارضته بان سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكونون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك)) وهو نفس راي الشريف المرتضي في الصرفة الذي قلنا انه يخالف راي النظام قليلا (١٥٦)

كما تحدث الرازي عن الاعجاز في عدة كتب منها التفسيره الكبير ، معالم اصول الدين ، محصل افكار المتقدمين ، ونهاية الايجاز في الاعجاز . ففي كتابه نهاية الايجاز يذكر الرازي ان الدليل على اعجاز القران عجز العرب عن معارضته مع انهم تحدوا اليها . ثم يشرح مذهب الصرفة كما قال به النظام وينقضه ، اذ يرى بانه لو كان صحيحا لما تعجب العرب من فصاحة القران ولكان نسيان العرب للصيغ المعلومة في مدة يسيرة دالا على زوال العقل ومعلوم ان العرب لم تزل عقولهم بعد التحدي (١٥٧)

اما في كتابه التفسير يرى ان العرب مع توفر دواعيهم لم يستطيعوا معارضته ـ اي القران ـ فعجزهم امر خارق للعادة فكان ذلك معجزا (١٥٨).

وهكذا اذا تدبرنا راي الرماني سنجده يدور في نفس الدائرة عندما يشرح كيف ان الصرفة تعتبر عنده احد وجوه الاعجاز . بقوله : واما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة (١٥٩) وعلى ذلك كان يعتمد بعض اهل العلم على ان القران معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي يظهر منها للعقول (١٦٠).

المبحث الثاني : رؤية قول الجاحظ في الاعجاز بالقرآن .

يرجع أصل عمرو بن بحر الجاحظ ، وكنيته ابو عثمان ، وهو كناني من صلبهم (١٦١) ، من اهل البصرة ، وهو ليس بحاجة الى تعريف ، فهو علم من اعلام المعتزلة ، واديب وناقد ومتكلم ، من الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة (١٦٢) .

كما وقد سار الجاحظ على النهج المعتزلي من خلال هدم دعاوي المغرضين واثبات اعجاز القرآن كلاميا وبلاغيا ، وله على البلاغة فضل لاينكر (١٦٣) .

وتابع الجاحظ استاذه النظام بالخصوص من ناحية المزج بين العلوم حتى اصبح وحيد عصره في جميع العلوم ، اذ جمع بين علم الكلام والاخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وايام العرب ، مع ما فيه من الفصاحة ، وله مصنفات كثيرة نافعة في التوحيد ، واثبات النبوة وفي الامامة ، وفضائل المعتزلة ، وغير ذلك (١٦٤).

وينقل عنه انه طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخلط وروج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة وروج لها ، بحسن براعته اللطيفة ، وكان اكثر ميله الى الفلاسفة الطبيعيين فجاءت اقواله مطبوعة بفلسفتهم (١٦٥)

صحيح ان الجاحظ يتفق مع استاذه النظام في الجمع بين العلوم الا انه يختلف عنه بالمنهج ؛ فاذا كان ابراهيم بن سيار النظام قد اشتهر بالبيان وسرعة الجواب ولسن القول ، فقد اشتهر الجاحظ بانه ذواق الكلام وصيرفي البيان ، فان خالف من يتسرع في الخبر ، ويبنى عليه ، فهي مخالفة الخبير العارف بتصرف القول ، وافانين التعبير والتفكير ، ولم يكن رد الجاحظ علي شيخه رد المجادل المحاور ، ولكنه كان بالعمل فقد كان اول من كتب في اعجاز القرآن من الناحية البيانية ، ليكون الرد على الصرفة ببيان الاعجاز الذاتي . (١٦٦)

ثم يرى الجاحظ في الاعجاز ما يراه اهل العربية ، وهو ان القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم ، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم (١٦٧) ، ويذكر ان العرب على بلاغتهم عجزوا عن معارضة القرآن ايام صاحب الرسالة بعد ان تحداهم الرسول ان ياتوا بمثل القرآن (١٦٨).

ولذلك هو يفرد حديثا مطولا عن عجز العرب عن الاتيان بهذا القرآن الذي ((تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتاليفه في المواضع الكثيرة ، والمحافل العظيمة ، فلم يرم ذلك احد ولا تكلفه ولا اتى ببعضه ولا شبيه منه ، ولا ادعى انه قد فعل ، فيكون ذلك الخبر باطلا ، وليس قول جمعهم انه كان كاذبا معارضا لهذا الخبر ، الا ان يسموا الانكار معارضة ، وانما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة ، فمتى قابلونا بأخبار في وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها فقد

عارضونا ، ووازنونا وكايلونا وقد تكافينا وتدافعنا))(١٦٩) مع ان محمداً (ﷺ) ((مخصوص بعلامة لها في العقل موقع كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاء والحكماء واصحاب الرأي المكيدة والتجارب والنظر والعاقبة : ان عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواى وصدقتم في تكذيبي ولا يجوز ان يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف عللهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم .. وبعد فقد هجوه من كل جانب ، وهجاه اصحابه شعراءهم ، ونازعوا خطباءهم ، وحاجوه في المواقف ، وخاصموه في المواسم وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم ، وقتلوا منه ، وهم اثبت الناس حقدا ، وابعدهم مطلبا ، واذكرهم لخير او لشر ، وانفاهم له واهجاهم بالعجز ، وامدحهم بالقوة ، ثم لايعارضه معارض ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر)) (١٧٠) .

اذن يتضح من ذلك ان القران معجز ، ولكن فيم كان الاعجاز في نظر الجاحظ (١٧١) ؟ ونذكر للجاحظ قولان في الاعجاز الاول القول بالصرفة والثاني القول باعجاز الاسلوب ، والذي يهم بحثنا القول الاول ، ذلك لأنه كان ما يزال متأثرا بآراء استاذه النظام (١٧٢) .

قول الجاحظ بالصرفة

ينسب الى عمرو بن بحر الجاحظ القول بالصرفة على الرغم من اضطراب مذهبه وعقيدته ، اذ كان من ديدنه انه يتبنى مذهبا فيصنف في الدفاع عنه ، ثم يرده بكتاب آخر وينتصر لما يضاد الرأي الاول ، وهكذا كان في كثير من اعتقاداته (١٧٣). اذ انه كغيره من المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم في منخل ، ولذلك لم يسلم هو ايضا من القول بالصرفة ، وردها في العلة الى ان الله صرف اوهام الناس عنها ، ورفع ذلك القصد من صدورهم ، ثم عد منها ما رفع من اوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه (١٧٤)

وبناءاً على ذلك فقد نادى الجاحظ بأن القرآن معجز بالصرفة ، ومعجز بالنظم ودل على ذلك بقول : و مثل ذلك ما رفع من اوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقران بعد ان تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم يجد احداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفة ، ولو تكلف بعضهم ذلك ، فجاء بامر فيه ادنى شبهة لعظم القصة على الاعراب ، والنساء واشباه النساء ، ولألقي ذلك للمسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال ، فقد رايت

اصحاب مسيلمة واصحاب بني النواحة ، انما تعلقوا بما آلف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه انه انما عدا على القرآن فسلبه واخذ بعضه وتعاطى ان يقارنه فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا)) (١٧٥) .

وهذه الصرفة التي عرضت للعرب فلم يقلدوا القرآن ،عرضت ايضا لقوم موسى ((فقد كانو امة من الامم يكسعون اربعين عاما في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون الى مخرج وما كانت بلاد التيه الا ملاعبهم ومتنزهاتهم ولا يعدم مثل العسكر والادلاء والحمالين والمكارين والفيوح والرسل والتجار ولكن صرف اوهامهم ورفع ذلك القدر من صدورهم)) (١٧٦) .

والصرفة ايضا عرضت للشياطين الذين يسترقون السمع الى السماء في كل ليلة ، وعرضت كذلك للمسلمين حين بشر الله تعالى نبيه الكريم بالظفر وتمام الامر ، وبشر اصحابه بالنصر ونزول الملائكة ، ولو كانوا لذلك ذاكرين لم يكن عليهم من المحاربة مؤونه ، واذا لم يتكلفوا المؤونة لم يؤجروا ، ولكن الله تعالى بنظره اليهم رفع ذلك في كثير من الحالات من اوهامهم ، ليتحملوا مشقة القتال وهم لا يعلمون ايغلبون ام يغلبون او يقتلون ام يقتلون (١٧٧)

اذن فالصرفة وجه من وجوه اعجاز القرآن ، ولكن تاتي مرتبتها بعد مرتبة التحدي والتجربة والفشل ثم الاعتراف بالعجز ، وهنا ياتي لطف الله بالناس ، من ان يطمع في القرآن طامع ويتكلفه ويشغب بما يسمح له فيتعلق به البسطاء ، وتكثر المحاكمة وتنتشر البلبلة بين الناس(١٧٨) ، ولهذا قال الجاحظ : ((فلما علم الله تبارك وتعالى ان الناس لا يدركون مصالحهم بانفسهم ولا يشعرون بعواقب امورهم بغرائزهم ، صرف اوهام المشاغبين عن العبث)) (١٧٩) .

ودليل هذا المعنى قوله تعالى : ((يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون))(١٨٠) ، ولا يتعارض هذا مع قولنا : إن القول بالصرفة جاء من المبدا الثاني للمعتزلة ، وهو العدل ، فالعدل الالهي الذي منح حرية الارادة للانسان ، وامكان القدرة ، ثم هيا للعقل ان يفكر ويجرب معارضة القرآن حتى اذا فشل اعترف بالعجز ، قد صرف اوهام من يريدون ان يتكلفوه ، حتى لايتعلق الناس بذبالات المخرقين ، ويختلط الامر (١٨١) .

ثم ان القول بالصرفة عند النظام والجاحظ لايخرج عن هذا الاطار ، ثم إنا نرى الجاحظ قد يعبر عن الصرفة بقوله : انما هي .... الى ان لايكون لأهل الشغب متعلق حين يحاول المعارضة

محاول ، فياتي بما يتاح له من ذلك مضطربا او ملفقا او مستكرها وليس يبعد عندنا ـ ان يكون هذا من تاويل الصرفة عند النظام في حقيقة الامر ، وانما حرفه خصومه بعد أن فهموه على النحو الذي رأينا (١٨٢).

وفي البيان والتبيين يحدثنا الجاحظ قائلاً ((كيف خالف القران جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الاشعار والاسجاع ، وكيف صار نظمه من اعظم البرهان ، وتاليفه من اكبر الحجج ؟)) (١٨٣) فالعرب ((حين استحكمت لغتهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم ، بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرون على اكثر منه ، فلم يقرعهم لعجزهم على نقصهم ، حتى تبين لضعفائهم وعوامهم كما تبين لاقويائهم وخواصهم ، وكان من اعجب ما اتاه الله مع سائر ما جاء به من الايات وضروب البرهانات)) (١٨٤).

ادلة الجاحظ على القول بالصرفة

الاول ـ ذكر الجاحظ انه لم يعارض احد من العرب القرأن بسورة من مثله او بعشر سورٍ مثله ، قال عن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) : ((وجاء بهذا الكتاب الذي نقرؤه ، فوجب العمل بما فيه ، وانه تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتاليفه في المواضيع الكثيرة ، والمحافل العظيمة ، فلم يرم ذلك احد ولا تكلفه ولا اتى ببعضه ولا شبيه منه ، ولا ادعى انه قد فعل ، فيكون ذلك الخبر باطلا ، وليس قول جمعهم انه كان كاذبا معارضا لهذا الخبر ، الا ان يسموا الانكار معارضة)) (١٨٥) .

الثاني ـ وايضا ذكر ان العرب لم يسكتوا امام القرآن لأنهم ((لايجوز ان يطبقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ،لأنه لايجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاء والحكماء ، مع اختلاف عللهم ، وبعد هممهم ، وشدة عداوتهم الاطباق على بذل الكثير وصون اليسير)) (١٨٦) .

الثالث ـ وانهم حاولوا فعجزوا وهل يذعن الاعراب واصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ثم لايبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم وهم اشد خلق الله أنفةً ، وافرط حميةً ، واطلبه بطائلة ، وقد سمعوه في كل منهلٍ وموقف)) (١٨٧)

٤ ـ ثم أنهم عرفوا عجزهم ، وان مثل ذلك لايتهيأ لهم ، فرأوا أن الاضطراب عن ذكره والتغافل عنه في هذا الباب وان قرعهم به ، امثل لهم في التدبير واجد ران لاينكشف امرهم للجاهل والضعيف ، واجد ران يجدوا الى الدعوى سبيلاً ، والى اختداع الانبياء سبباً ، فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه . (١٨٨) و الدليل القراني الذي يثبت ذلك هو قوله عز وجل ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)) (١٨٩)

اذن فالقرآن معجز عند الجاحظ بالصرفة والنظم ، وقد حاول العرب معارضته فعجزوا ، مع ان الكلام كان سيد عملهم (١٩٠) .

الخاتمة :

اعتبرت فكرة الاعجاز بالصرفة التي قال بها النظام من الافكار الباطلة وان دلائل البطلان قائمة ثابتة مأخوذة من الوقائع التاريخية والموازنات الحقيقة الثابتة (٢٤١) .

١ـ ما ذكرنا من قبل أن العرب عندما تلقوا القران راعهم بيانه ، واثار اعجابهم اسلوبه وعباراته ، وقالوا: ما رأينا مثله شعرا ولا نثرا ، فكان العجز لذاته ، لا لشيء خارج عنه ، وما لنا نفترض ما لم يقولوا وما لم يفعلوا ، وما لم يقدروا ، إلا أن يكون ذلك تمويها ، وانكارا للواقع المستقر ، بفرض وهمي (٢٤٢).

٢ـ وايضا فإنه لو كان العجز لأمر خارجي لا لأمر ذاتي فيه بأن تكون عندهم القدرة على ان ياتوا بمثله ولكن صرفوا ، فان ذلك يقتضي ان يثبت انهم قادرون على مثله ، وهم اولا قد نفوا

ذلك عن قدرتهم ، وليس لنا أن نفترض لهم قدرة قد نفوها عن انفسهم ، لو كانوا قادرين لكان من كلامهم قبل نزول القرآن عليهم ما يكون متماثلا في نسقه ونسجه ، وله مثل رنينه وصوره البيانية في شعر او نثر ، ولكان المتتبع للماثورات العربية في الجاهلية والاسلام لايجد فيها ما يقارب القرآن في ألفاظه او معانيه او صوره البيانية (٢٤٣) .

٣ـ وكذلك لو قلنا : إن الذي منع العرب من الإتيان بمثله هو الصرفة لم يكن القرآن هو المعجز ، وانما يكون العجز منهم ، وهذا العجز منهم ليس ذاتياً وانما الله هو من سلب القدرة منهم ، فلم يعجزهم القرآن ذاته ، وقد كان القرآن هو معجزة النبي (ﷺ) ، والقول بالصرفة ينفي عنه خواص الاعجاز (٢٤٥).

وان معجزات النبيين السابقين ما كان في طاقة الناس ان ياتوا بمثلها في ذاتها ، ولم يكن بصرف الناس عن أن يأتوا بمثلها ، فمعجزة العصا ، والآيات التسع لموسى عليه السلام ما كان العجز من الناس بالصرف ، ولكن بالعجز الحقيقي . فلماذا لا تكون معجزة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم **) كسائر المعجزات وهي اجل واعظم (٢٤٦).**

٤ـ هذا بالاضافة الى أن الله تعالى قد وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل اليها معجزات أخرى ، فكانت هذه توجب ان يكون اعجازه ذاتيا (٢٤٧) ولقد قال تعالت كلماته : ((ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى بل لله الامر جميعا)) (٢٤٨).

ويقول جل من قائل : ((الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد)) (٢٤٩).

واذا كان القران بهذه الاوصاف التي وصفه بها منزله سبحانه وتعالى ، افيقال بعد ذلك إن الناس يستطيعون ان ياتوا بمثله ؟ هم لايستطيعون ذلك ولكن العلة في عدم استطاعتهم مختلفة كما تعلم . وان مثل الذين يقولون : ان اعجاز القرآن بالصرفة ، كمثل الذين قالوا : ان القرآن سحر يؤثر (٢٥٠) .

وان التشابه بين القول بانه سحر والقول بالصرفة أن الامتناع عن المماثلة في كليهما من خارج الشيء لا من ذاته ، فالقول بالصرفة يفيد ان العرب لم يكونوا عاجزين . ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة ، وكذلك الامر في السحر يشدهم حتى يعجزوا (٢٥٣) .

الهوامش :

(١) - ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، دار الفكر العربي ، القاهرة،١٩٩٨ ، ص٥٧ . يقال ان هذا الكلام قاله الوليد بن المغيرة ، وقيل نسب الى الجعد بن درهم وهو اول من صرح بذلك ، وتجرا عليه .(مؤدب مروان بن محمد الملقب بالحمار ، آخر خلفاء بني امية) بقوله بان فصاحة القران غير معجزة ، وان الناس يقدرون على مثلها ، وعلى احسن منها ...معرفة ، محمد هادي التمهيد ، ج٢ ، ص١٧٢

(٢) - سورةالطور ، اية ٣٤ .

(٣)- سورة هود ، اية ١٣ .

(٤)- سورة البقرة ،اية ٢٣ .

(٥) - ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٧ .

(٦) - يسمى لبيد بن الاعصم : رجل يهودي ظهر في عهد النبي ، طعن في القرأن ، نسب اليه انه سحر النبي ، راجع صحيح البخاري باب السحر .

(٧) - الحمصي ، نعيم ، تاريخ فكرة اعجاز القرآن ، تقديم محمد بهجت البيطار ، دمشق ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م ، ص ٣٥ .

(٨) - بيان بن سمعان التميمي النهدي : اصله من اليمن ظهر بالعراق في اوائل القرن الثاني الهجري ادعى الربوبية والنبوة والامامة ، قتله خالد بن عبد الله القسري الذي كان والياً على العراق . والى بيان هذا تنسب الفرقة الغالية البيانية . راجع البغدادي ،ابي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا ، ص٢٠٨ .

(٩) - الحمصي ، تاريخ فكرة اعجاز القرآن ، ص ٣٥ .

(١٠)– المصدر نفسه ، ص٣٦ ، ٣٧

(١١) - ابن المقفع : هو عبد الله بن المقفع . كاتب وشاعر ، وأحد النقلة من اللسان الفارسي الى العربي وهو فارسي الأصل نشأ بالبصرة وأتهم بالزندقة فقتله أمير البصرة سفيان بن معاوية . من آثاره : الأدب الصغير ، الدرة اليتيمة ، والجوهرة الثمينة في طاعة السلطان . طلب ان يعارض القرآن ، فنظم كلاماً ، وجعله مفصلاً ، وسماه سوراً ، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب : ووصل الى الآية : ((وقيل يآ أرض ابلعي مآءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين)) فرجع - ابن المقفع - ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبداً ، وما هو من كلام البشر ، وكان فصيح أهل عصره .(الماوردي ، ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب ، النكت والعيون تفسير الماوردي ، ط٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٧ م ، ص٣١ .

(١٢)- ينظر: الحمصي، تارخ فكرة اعجاز القرآن ، ص ٣٦ - ٤٦ -٤٨ .

(١٣) ـ الرافعي ، مصطفى صادق ، اعجاز القران والبلاغة النبوية ، ط٧ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٦١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(١٤) ـ ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٧ . وابرز هؤلاء المتفلسفين هو ابراهيم بن سيار النظام الذي يقال انه معجب بقول البراهمة بابطال النبوات ، ولم يجسر على اظهار هذا القول خوفا من السيف ، فانكر اعجاز القران في نظمه وانكر ما روي من معجزات نبينا (ص) ، من انشقاق القمر ، وتسبيح الحصى في يده ، ونبوع الماء من بين اصابعه (البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص١١٩) .

(١٥) ـ البراهمة : من الناس من يظن انهم سموا براهمة لانتسابهم الى ابراهيم " عليه السلام " وذلك خطا : فان هؤلاء القوم هم المخصوصون بنفي النبوات اصلا ورأسا فكيف يقولون بابراهيم عليه السلام ؟ والقوم الذين اعتقدوا نبوة " ابراهيم " عليه السلام من " اهل الهند " فهم " الثنوية " منهم القائلون بالنور والظلمة على راي " اصحاب الاثنين ، لكن البراهمة " انما انتسبوا الى رجل منهم يقال له " براهم " وقد مهد لهم نفي " النبوات " اصلا وقرر استحالة ذلك في العقول .الشهرستاني ، الملل والنحل ،ج٢ ، ص ٢٣٣ .

(١٦) ـ ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٧ .

(١٧) – البيروني : هو الاستاذ ابو الريحان محمد بن احمد البيروني ، اصله من فارس ومولده في بيروت عاصمة خوارزم سنة (٣٦٢ ـ ٤٤٠ هـ) ، عالم جليل سافر الى الهند ودرس لغة اهلها وثقافتهم ، ودون دراسته في كتابه : تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، وهو من امهات الكتب التي يرجع اليها في علوم الهند .

(١٨) ـ ابو الريحان البيروني ، في كتابه ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة نقلاً عن محمد ابو زهرة ، المعجزة الكبرى في القرآن ،ص٥٧ .

(١٩) ـ ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٩ .

(٢٠) ـ ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٩ .

(٢١) ـ ينظر: صبحي ، احمد محمود ، في علم الكلام ، ج١ ، ط٥ ، دار النهظة العربية ، بيروت ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م ، ص٢٢٧ .

(٢٢) ـ ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٩ .

(٢٣) ـ ينظر: صبحي ، في علم الكلام ، ج١ ، ص٢٢٧ .

(٢٤) ـ ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٧ ، ٥٨ ،٥٩ .

(٢٥)– الباقلاني : هو ابو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني ، قاض من كبار المتكلمين ، انتهت اليه رئاسة الاشاعرة في زمانه (ت ٤٠٣ هـ)

(٢٦) ـ الباقلاني ، القاضي ابو بكر ، اعجاز القرآن ضمن كتاب علوم القرآن ، للسيوطي ،ج١ ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ، ٢٠١٠ م ، ص٦٠٧ ،٦٠٨ .

(٢٧) ـ ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٥٧ ، ٥٨ . وينظر : الباقلاني اعجاز القرآن ، ج١ ، ص٦٠٧ .

(٢٨) ـ الفراهيدي ،ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد ، كتاب العين ، دار احياء التراث العربي، ١٠٠ ـ ١٧٥ هـ ، ص ٥١٧ .

(٢٩) ـ ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا ، معجم المقاييس في اللغة ، ط١ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٤ ، ص٥٩٠ .

(٣٠)– ينظر: ابن منظور ، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، مج٩ ، ط١ ، دار صادر بيروت ١٩٩٠ م ص١٩٠ .

(٣١) ـ الزبيدي ، السيد محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس ، ج٢٤ ، تحقيق مصطفى حجازي ، نقلا عن ديوان الفرزدق برواية نفي الدراهم ، ص ١٩ .

(٣٢) ـ ابن زكريا ، معجم المقاييس في اللغة ، ص٥٩٠ .

(٣٣) ـ ينظر: ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا ،في كتابه مجمل اللغة ،مكتبة البحوث والدراسات دار الفكر بيروت ١٩٩٤ م ، ص٤٢٧ ، وايضا في كتابه معجم المقاييس في اللغة ، ص٥٩٠ .

(٣٤) ـ ابن منظور ، لسان العرب ، مج ٩ ، ص١٨٩ .

(٣٥) ـ الاصفهاني ، الراغب ، ط٤ ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ،مفردات الفاظ القرآن ، ص٤٨٢ .

(٣٦) ـ ينظر : الفيروز ابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، ط١ ، مكتبة البحوث والدراسات دار الفكر بيروت ، ٢٠٠٣ م ، ص٧٤٤ . كذلك ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي ، كتاب العين ، ٥١٧ . ابن منظور ، لسان العرب ، مج ٩ ، ص١٨٩ . وايضا السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٣ ، ص١٣ .

(٣٧) ـ ابن منظور ، لسان العرب ، مج٩ ، ص١٨٩ .

(٣٨) ـ الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٣ ، ص١٣ .

(٣٩) ـ ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مج٩ ، ص١٨٩ . وايضا الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٤ ، ص ١٢ .

(٤٠) ـ ينظر: الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٤ ، ص١٤ . الشريف المرتضى ، علي بن الحسين الموسوي البغدادي ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن (الصرفة) ، تحقيق : محمد رضا الانصاري القمي ، ط١ ، مجمع البحوث الاسلامية ، مشهد ، ١٤٢٤ هـ ، ص١٠ . او كما ينقل عن الطبرسي في مجمعه قوله : سأفسخ عزائمهم على ابطال حججي بالقدح فيها وامكان تكذيبها ، وذلك بوفرة الدلائل الواضحة والتأييد الكثيير ، بما لايدع مجالا لتشكيك المعاندين ولا ارتياب المرتابين ، كما يقال : فلان اخرس اعداءه عن امكان ذمه والطعن فيه بما تحلى من افعاله الحميدة ةاخلاقه الكريمة (معرفة ، محمد هادي ، تلخيص التمهيد ، ج٢ ،مؤسسة النشر الاسلامي ، ص٧٦ .

(٤١) ـ الدامغاني ، ابي عبد الله الحسين بن محمد ، الوجوه والنظائر لالفاظ كتاب الله العزيز ومعانيها ، ط١، مكتبة الفارابي ، دمشق سوريا ، ١٩٩٨ ، فلقد جاء في تفسر الصرفة على ثمانية اوجه : ((عدل ، وجه ، بين ، قسم ، مال ، لون ، رفع ، هزم)) ، ص٤٧٥ ـ ٤٧٧ .

(٤٢) ـ سورة التوبة ، الآية : ١٢٧ .

(٤٣)ـ ابن منظور ، لسان العرب ، مج ٩ ، ص١٨٩

(٤٤) ـ الدامغاني ،الوجوه والنظائر لالفاظ كتاب الله العزيز ومعانيها ، ص٤٧٧ .

(٤٥) ـ سورة الاعراف ، الآية : ١٤٦ .

(٤٦) ـ ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مج٩، ص١٨٩ . وكذلك الزبيدي ، تاج العروس مج٢٤ ، ص ١٢

(٤٧) ـ سورة الفرقان ، الآية : ١٩ .

(٤٨) ـ الطريحي ، الشيخ فخر الدين ، معجم مجمع البحرين ، ط١ ، منشورات الاعلمي بيروت لبنان ٢٠٠٩ ،ص٧٤٦ .

(٤٩) ـ ينظر : الاصفهاني، الراغب ، مفردات الفاظ القرآن ، ط٤ ، منشورات ذوي القربى،١٣٨٣ هـ ص٤٨٢ . كذلك ابن منظور، لسان العرب ، ج٩ ، ص١٨٩ .)

(٥٠) ـ سورة الاسرآء، الآية : ٨٩ .

(٥١) ـ الطريحي ، معجم مجمع البحرين ، ص٧٤٦ .

(٥٢)ـ ينظر: الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٣ ، ص ١٢ . الفيروز ابادي ، القاموس المحيط ، ص٧٤٤

(٥٣) ـ الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢٣ ، ص ١٢ . ابن منظور، لسان العرب ، ج٩ ، ص ١٩١)

(٥٤) ـ ابن منظور، لسان العرب ، ج٩ ، ص ١٩١)

(٥٥) ـ الطريحي ، معجم مجمع البحرين ،ص٧٤٦

(٥٦) ـ سورة الاعرآف ، اية : ٤٧ .

(٥٧) ـ الشنتاوي ، احمد ، وآخرون ، دائرة المعارف الاسلامية ، نقلها الى العربية مجلد ١٤ ،ص١٩٨، ص١٩٩ . لقد وردة كلمة صرف في المعاجم بمعنى الوزن او الكيل او الاكتساب . الفيروز ابادي ، القاموس المحيط ، ص٧٤٤ .

(٥٨) . الطريحي ، معجم مجمع البحرين ،ص ٧٤٧ .

(٥٩) ـ الشريف المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن (الصرفة) ، ص١١ . التمهيد ، ص٢٤ . (بتصرف)

(٦٠) ـ الاسدي ، قيصركاظم عاجل ، البحث القراني ، ط١ ، دار البيضاء للطباعة ، النجف الاشرف ٢٠٠٨ م ، ص١٣٥ . نقلاً عن الرماني ،النكت في اعجاز القران .

(٦١) ـ سلسة العلوم والمعارف الاسلامية ، الثالثة عشر ،الوجيز في علوم القرأن ، مؤسسة المعارف الاسلامية الثقافية ، ص٧٨ .

(٦٢) ـ الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان ٢٠٠٨ م ، ص٣٠١ .

(٦٣) ـ الماوردي ، النكت والعيون ، ص٣٣ .

(٦٤) ـ الاسفراييني : هو ابو اسحاق الاسفراييني الفقيه المتكلم الاصولي من اتباع المذهب الاشعري ، وعنه اخذ الكلام والا صول شيوخ نيسابور ، له كتاب الجامع في اصول الدين والرد على الملحدين ، ومسائل الدور وتعليقاته في اصول الفقه . المغربي ، عبد الفتاح ، الفرق الكلامية الاسلامية ، ط٢ ، الناشر مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٩٥ ،ص٢٧٢ .

(٦٥) ـ النظام : هو ابو اسحاق بن سيار النظام ابن اخت ابو الهذيل العلاف وعنه اخذ الاعتزال من اذكياء المعتزلة وهو شيخ الجاحظ وسمي بالنظام لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة (ت ٢٢١ هـ). الشهرستاني ، الملل والنحل ،ج١ ، ص٤٦ .

(٦٦) ـ الشريف المرتضى : هو علي بن الحسين الموسوي المتكلم الامامي الفقيه الأديب ابرز من استوفى الكلام عن الصرفة من بين المتكلمين المعنيين بأمر القرأن ، فانه كان يذهب الى القول بالصرفة وتحدث عن خطوط الموضوع الكبرى في كتابه (الذخيرة في علم الكلام) ، ثم زاد في البسط والايضاح ورد الاعتراضات في كتابه (الموضح عن جهة اعجاز القرأن او الصرفة) .

(٦٧) ـ التفتازاني ، مسعود بن عمر بن عبد الله ، شرح المقاصد ، ط١، مج ٣ ، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠١ م ، ص٢٨٩ .) ونلاحظ فرقا دقيقا بين رأي النظام في الصرفة وراي المرتضى فالصرفة عند النظام عدم معارضتهم للقران مع قدرتهم عليها والصرفة عند المرتضى عدم قدرتهم عليها لانهم سلبوا مقوماتها وما يساعدهم من المعارف عليها بعد ان كانت متاصلة فيهم (نعيم الحمصي ، تاريخ فكرة اعجاز القرآن ،ص٦٨)

(٦٨) ـ ابو على ، محمد بركات حمدي ، في اعجاز القران الكريم ،ط١ ، منشورات الخافقين ومكتبتها محمد مفيد بن عزه الخيمي ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م ، ص٩١ ، ٩٢ .

(٦٩) ـ ابي الحسن الاشعري : هو علي بن اسماعيل بن اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن ابي بردة بن ابي موسى الاشعري ، ولذلك اشتهر بالاشعري نسبتا الى جده الاعلى الصحابي المعروف . ولد سنة ٢٦٠ بالبصرة . كان معتزلياً وتلميذاً للجبائي ثم خرج على المعتزلة .

(٧٠) ـ المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص ١٤ .

(٧١) ـ الايجي ، عضد الدين عبد الرحمن ابن احمد ، كتاب المواقف ، بشرح الشريف الجرجاني ، تحقيق : عبد الرحمن عميرة ، المجلد الثالث ، الطبعة الأولى ، دار الجيل بيروت ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م . ، ص٣٩٢ .

(٧٢) ـ الرافعي ،مصطفى ، اعجاز القرآن ، ص١٦٢ .

(٧٣) ـ ينظر: المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١٥ . وكذلك الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص١٦٤ . ربط ابن حزم مسالة لاعجاز بمسالة الجبر في الاختيار ، وان لاميزة جوهرية في القرآن لولا المنع الخارجي ، واستند الى ما يوجد في القرآن من تفاوت في درجة البلاغة ، ومن سرد اسماء زعم ان لا عجيبة في نضدها بما يفوق كلام العرب . محمد هادي معرفة ، التمهيد ، ص٨٨ .)

(٧٤) ـ التفتازاني ، شرح المقاصد ، مج ٣ ، ص٢٨٧ .

(٧٥) ـ سورة الاسراء : الاية ٨٨ .

(٧٦). المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١١ .

(٧٧) ـ معرفة ، محمد هادي ، التمهيد ، ج٢ ، مؤسسة النشر الاسلامي ، ص٧٥ .

(٧٨)- ابي القاسم البلخي : هوعبد الله بن احمد بن محمود البلخي نسبة الى بلخ احدى مدن خراسان ، ويعرف بالكعبي نسبة الى بني كعب ، عالم متكلم من متكلمي المعتزلة البغداديين رئيس اهل زمانه ، واختلف في تاريخ ميلاده ووفاته ، فيقال انه ولد سنة ٢٧٣ هـ ، وتوفي سنة ٣١٧ هـ او سنة ٣١٩ هـ . ابي القاسم البلخي وأخرون ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق فؤاد السيد ، الدار التونسية للنشر ،ص٤٣ ـ ٤٥ .

(٧٩) ـ المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١٢ .

(٨٠) ـ سورة المدثر ، الآية : ٢٤ .

(٨١) ـ الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص١٦٤ .

(٨٢) ـ سورة الطور ، الآية : ١٥ .

(٨٣) ـ الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص١٦٤ .

(٨٤) ـ المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١٢ .

(٨٥) ـ ينظر: الجرجاني ، شرح المواقف ،ضمن كتاب المقاصد للتفتزاني ، ص٢٩٢ . محمد هادي معرفة ، تلخيص التمهيد ، ص٧٦.

(٨٦) ـ معرفة ، محمد هادي ، تلخيص التمهيد ـج٢ ،ص ،٧٧ .

(٨٧) ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها . وينظر : المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١٢ .

(٨٨)ـ معرفة ، محمد هادي ، تلخيص التمهيد ،ج٢ ، ص٧٨ .

(٨٩) ـ التفتازاني ، شرح المقاصد ، مج٣ ، ص٢٨٩ .

(٩٠) ـ السلسلة الثالة عشر من المعارف الاسلامية ، الوجيز في القرآن ،ص٧٨ .

(٩١) ـ المصدر نفسه ، ص٧٩ .

(٩٢) ـ الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص٢٠١ .

(٩٣) ـ سورة الاسراء الاية ٨٨

(٩٤) ـ الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص٢٠١ .

(٩٥) ـ البغدادي ، ابي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد ، الفرق بين الفرق ، مكتبة ابن سينا ، ص١١٩ .

(٩٦) - البغدادي ، الفرق بين الفرق ،ص١١٩ .

(٩٧) - ينظر: سلطان ، منير ، اعجاز القران بين المعتزلة والاشاعرة ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية جلال حزى وشركاه ، ١٩٧٧ ، ص ٥٠ .

(٩٨)- ينظر: ابو زهرة ، محمد ، المعجزة الكبرى القرآن ،ص٥٩ .

(٩٩) - ينظر: المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١٢ ،١٣

(١٠٠) - الاشاعرة : اصحاب ابي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري من احفاد الصحابي ابي موسى الاشعري وكان ابوه على مذهب السنة والجماعة والحديث، ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ، وتوفي في بغداد سنة ٣٣٦ هـ وكن في اول امره معتزلياً اخذ الاعتزال عن ابي علي الجبائي ثم تحول الى مذهب الاشعرية ومن اتباعه من الاشاعرة هم الباقلاني وابن فورك والاسفراييني ، والجويني ، وابو اسحق الشيرازي ، وابو حامد الغزالي ، وابن تومر ، والفخر الرازي ، والقاضي عضد الدين الايجي ، والجرجاني ، والتفتازاني. عبد المنعم الحفني ، موسوعة الفرق والجماعات ، ص٨٢ -٨٤ . (وقد شنع هؤلاء الاشاعرة على موقف النظام اذ لم يجد في نظم القرآن معجزة ، وادعوا عليه القول : إن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو احسن منه في النظم والتاليف ، وان في ذلك عناد (٨٧) ؛ لقول الله تعالى : ((قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) (٨٨) ، غير أن النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفت به ،)

(١٠١) – المجبرة : هم اصحاب الجبر القائلين بالاجبار والاضطرار في الاعمال وانكروا الاستطاعات كلها ، وانه لافعل ، ولا عمل لأحد غير الله تعالى ، اي نفي الفعل حقيقة عن العبد واضافته الى الرب ، وانما تنسب الاعمال الى المخلوقين على المجاز، والجبرية اصناف : جبرية خالصة التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل اصلا ، كالجهمية والضرارية والنجارية ، وجبرية متوسطة التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة اصلا كالاشعرية الذين قالوا : افعال العباد مخلوقة لله ، وما الانسان الا مكتسب للفعل الذي احدثة الله على يدي هذا الانسان . ينظر: الشهرستاني ،ج١ ، ص٦٧. عبد المنعم الحفني ، موسوعة الفرق والجماعات ، ص٢٠٤ .

(١٠٢) - الحشوية : قوم تمسكوا بالظواهر فذهبوا الى التجسيم وغيره ، يجرون آيات الله على ظاهرها ويعتقدون ان هذا الظاهر هو المراد منها ، فاذا جاء في الفرآن ان لله يداً ووجهاً فانه تعالى تكون له يد ووجه . عبد المنعم الحفني ، موسوعة الفرق والجماعات ، ص ٣١٤ .

(١٠٣) - المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١٢ ،١٣ .

(١٠٤) - المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ،ص١٢ ،١٣ . ذهب قوم من المتكلمين الى القول بان وجه الاعجاز هو ما اشتمل عليه القران من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعه ومقاطعه وفواصله ، وعلى هذا الراي معظم المعتزلة الا النظام ، وهشام الفوطي وعباد ابن سليمان (محمود صبحي ، علم الكلام ، ٢٢٧) (يذكر الاشعري اختلاف هولاء الثلاثة في وجه الاعجاز انظر، الاشعري ، ابي الحسن علي بن اسماعيل مقالات الاسلاميين ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ٢٠٠٨ م ، ص١٧٩ .

(١٠٥) - البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ١٢٩ . ومثل هذا الراي الذي يبدو غريبا وجريئا وجد من يقره من المعتزلة كابي موسى المردار (المتوفي ٢٢٦) الذي كان يرى ان الناس قادرون على مثل القران بلاغة ونظما وفصاحة . الراوي ، عبد الستار عز الدين ، ثورة العقل ، ص٧٤ .)

(١٠٦) عباد بن سليمان الصخري: من تلاميذ هشام بن عمر الفوطي المتوفي سنة ٢٥٠ هـ كان معتزلياً ثم تحول الى مذهب الزنادقة .

(١٠٧) ـ الفوطي : هشام بن عمرو الشيباني الفوطي من رؤساء المعتزلة من الطبقة السادسة ، وهو من اهل البصرة وكان عظيم القدر عند العامة والخاصة ، وكان يحضى باحترام المامون ، والذي تفرد به امتناعه من اشياء جاء بها القرأن . (ت ٢٢٦ هـ) .

(١٠٨) ـ الراوي ، ص٧٤ وراجع الباقلاني اعجاز القران ، ص .

(١٠٩) ـ ينظر: المرتضى ص ١٣ . يرى السبحاني ان من الاراء التي نسبت الى النظام هو حصر اعجاز القران في الاخبار عن المغيبات ، واما التاليف والنظم فقد كان يجوز ان يقدر عليه العباد لولا ان الله منعهم بمنع ، الملل والنحل ، ص١٠٥ .

(١١٠) ـ البغدادي الفرق بين الفرق ، ص ١٢٩ .

(١١١) ـ المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص ١٣ .

(١١٢) ـ الخياط ، الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ، الناشر مكتبة الثقافة الدينية ، ص٦٨

(١١٣) ـ سورة الاسراء ، الاية ٨٨ .

(١١٤) ـ الخياط ، الانتصار ، ص٦٨ .

(١١٥) ـ سورة النور الآية :٥٥ .

(١١٦) ـ سورة الفتح : الآية ١٦ .

(١١٧) ـ سورة الروم : آية ١ ـ٣ .

(١١٨) ـ سورة الجمعة :الآية ٦ .

(١١٩) ـ سورة الجمعة : آية ٧ .

(١٢٠) ـ سورة آل عمران الآية :٦١ .

(١٢١) ـ الخياط ، الانتصار ، ص٦٨ .

(١٢٢) ـ سورة الاسراء الآيه :٨٨ .

(١٢٣) ـ الراوي ، ثورة العقل ، ص٧٥ .

(١٢٤) ـ الراوي ، ثورة العقل ، ص٧٥ . وراجع الشهرستاني الملل والنحل ص٤٨ . وهذا دفاع ليس فيه الا تقرير راي النظام في ان الاعجاز في الاخبار بالغيب .(سلطان ، منير ، اعجاز القرآن ص٥١

(١٢٥) ـ الاشعري ، ابي الحسن علي بن اسماعيل ، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين،ج١ ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ٢٠٠٨ ، ص١٧٩

(١٢٦) ـ ينظر : لمرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة ، ص١٣ .

(١٢٧) ـ المرتضى ، الموضح عن جهة اعجاز القرآن الصرفة نقلاً عن كتابه الذخير ة ، ص١٣ .

(١٢٨)ـ.السيوطي ، جلال الدين ، الاتقان في علوم القرأن ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان ٢٠١٠ م ،ص٤٦٦ .(وقد قال هوابو موسى عيسى بن صبيح الملقب بالمردار (ت ٢٢٦) من علماء المعتزلة المتقدمين فيهم ، في القرآن مثلما قال النظام : إن الناس قادرون على أن ياتوا بمثله و بما هو افصح منه ، وزاد عليه بالمبالغة في القول بخلق القرآن ، وتكفير من قال بقدمه . الحفني ، عبد المنعم ، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب ، ط٤ ، مكتبة مدبولي ٢٠٠٥ م ، ص٥٩٨ .)

(١٢٩) ـ الجرجاني ، شرح المواقف ،٣٩٢ . وينظر : الحمصي، نعيم ، تاريخ فكرة اعجاز القران ، ص٥٢ . وايضا احمد محمود صبحي ، علم الكلام ، ص٢٢٧

(١٣٠) ـ معرفة ، التمهيد ،ج٢ ، ص٧٥ .

(١٣١) ـ الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص١٦٤ .

(١٣٢) ـ معرفة ، التمهيد ، ج٢ ، ص ٨١ ـ ٨٨ .

(١٣٣) ـ سورة الانفال ، الاية ٣١ .

(١٣٤) ـ معرفة ، التمهيد ، ج٢، ص ٨١ ـ ٨٨ .

(١٣٥) ـ سورة يونس ، الاية: ٣٩ .

(١٣٦) ـ معرفة ، التمهيد ، ج٢، ص٨٢ .

(١٣٧) ـ الحمصي، نعيم ، تاريخ فكرة اعجاز القران ، ص٥٢ . نقلاً عن كتاب نهاية الايجاز في دراية الاعجاز للفخر الرازي .

(١٣٨) ـ معرفة ، التمهيد ، ج٤ ، ص٨٢ .

(١٣٩) ـ الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص١٦٣ .

(١٤٠) وينظر: سلطان ، منير ،اعجاز القرآن ص٥١ . وكذلك الاشعري ، مقالات الاسلاميين ، ص١٨٣ ـ ١٩٠ .

(١٤١) ـ الآسدآبادي ، القاضي ابي الحسن عبد الجبار ، المغني في ابواب التوحيد والعدل ،اعجاز القران ،تقويم امين الخولي . ص٣٢٤ . سلطان ، منير ، اعجاز القران ، ص ٢٠٤ .

(١٤٢) ـ القاضي عبد الجبار ، المغني ، اعجاز القران . ص٣٣٦ .

(١٤٣) ـ سلطان ، منير ، اعجاز القران ، ص ٢٠٤ .

(١٤٤) ـ ، اعجاز القرآن ص٥١ . ويرى القاضي عبد الجبار ان مبدأ الصرفة نبع من المبدأ الثاني للمعتزلة ، وهو مبدأ العدل الالهي ، وفحواه ((ان العبد قادر خالق لافعاله خيرها وشرها)) ينظر:القاضي عبد الجبار ،شرح الاصول الخمسة،ص١٣٢ .

(١٤٥) ـ سلطان ، منير ، اعجاز القرآن ص٥٢ .

(١٤٦) ـ الاشعري ، مقالات الاسلاميين ، ص ١٨٤ .

(١٤٧) ـ ينظر: اعجاز القرآن ص٥٢ ، ص٢٠٥ .

(١٤٨) ـ ـ سلطان ، منير ، اعجاز القرآن ص٥٢ .

(١٤٩) ـ الحيوان ،ج١ ، ص١٦٨ .

(١٥٠) ـ سلطان ، منير ، اعجاز القرآن ص٥٣ . وراجع الجاحظ ، الحيوان ، ج٥ ، ص٨٨ .

(١٥١) ـ سورة الاعراف ، الآية ١٣٢ .

(١٥٢) ـ سلطان ، منير ، اعجاز القرآن ص٥٣ . وراجع الجاحظ ، الحيوان ، ج٥ ، ص٨٨ .

(١٥٣) ـ ابن المرتضى المنية والامل ، ص٣٨ .

(١٥٤) ـ الحمصي ، تاريخ فكرة اعجاز القران ، ص٦٧ ،٦٨ .

(١٥٥) ـ المصدر نفسه ، ص٨١ .

(١٥٦) ـ المصدر نفسه ، ص ٨٢

(١٥٧) ـ المصدر نفسه ، ص٩٤ .

(١٥٨) ـ نعيم الحمصي ، ص٩٦ ، ٩٧ .

(١٥٩) ـ الاسدي ، قيصركاظم عاجل ، البحث القراني ، ص١٣٥ .

(١٦٠) ـ ابو على ، محمد بركات حمدي ، في اعجاز القران الكريم ، ص٩١ ، ٩٢ .

(١٦١) ـ بن المرتضى ، احمد بن يحيى ، باب ذكر المعتزلة ، دار صادر بيروت ، ص٣٨

(١٦٢) ـ ينظر: البلخي ، ابي القاسم ، وآخرون ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق فؤاد سيد ، الدار التونسية للنشر تونس ١٩٧٤ ،ص٧٣ . وكذلك منير سلطان ، اعجاز القران ، ص٥٣ .

(١٦٣) سلطان ، منير ، اعجاز القرآن ص٥٣ . البلاغة في المتكلم : ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ ، والبلاغة في الكلام : مطابقة لمقتضى الحال ، والمراد بالحال الأمر الداعي الى التكلم على وجه مخصوص مع

فصاحته أي فصاحة الكلام ، وقيل البلاغة تنبىء عن الوصول والانتهاء .(الجرجاني ،هامش شرح المواقف ، ص٣٩٠)

(١٦٤) ـ بن المرتضى ، باب ذكر المعتزلة ، ص٣٨ .

(١٦٥) ـ ينظر : جار الله ، المعتزلة ، ط٦ ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٠ م ، ص١٥٣ . الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج١ ، ص٦٠ ، ٦١ .

(١٦٦) ابو زهرة ، المعجزة الكبرى ، ص٥٩ .

(١٦٧) ـ ينظر : الجرجاني ، شرح المواقف ، ص ٣٩٠ . وايضا التمهيد ، ص١٤٤ . الرافعي ، ص١٦٤ ، ١٦٥ . قال اهل العربية في تفسير البلاغة عبارات مختلفة احسنها قولهم (البلاغة التعبير باللفظ الرائع عن المعنى الصحيح بلا زيادة ولا نقصان في البيان . ثم اصل البلاغة في القرآن متفق عليه ، لا ينكره من له أدنى تمييز ومعرفة بصياغة الكلام . الايجي ، المواقف ، ص٣٧٧

(١٦٨) ـ ينظر : تاريخ فكرة اعجاز القرآن ، نعيم الحمصي ، ص٥٣ .

(١٦٩) ـ الجاحظ ، الرسائل ،ج٣ ، ط١ كتاب حجج النبوة ، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩ م ص٢٧٥ ـ ٢٧٨ .

(١٧٠) ـ اعجاز القرآن ، ص٥٧ ، ٥٨ .

(١٧١) ـ اعجاز القرآن ، ص٥٧ .

(١٧٢) ـ تاريخ فكرة اعجاز القرآن ، نعيم الحمصي ، ص٥٣ .

(١٧٣)ـ المرتضى ، الموضح عن القول بالصرفة ، ص١٤ .

(١٧٤) ـ الرافعي ، اعجاز القرآن ، ص١٦٤ ،١٦٥ .

(١٧٥) ينظر: سلطان ، منير ،اعجاز القرآن ، ص٥٨ . وراجع الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج٤ ، ص٣٢ .

(١٧٦) ـ سلطان ، منير ،اعجاز القرآن ، ص٥٨ . وراجع الجاحظ كتاب الحيوان ، ٤ ، ص٤٥٥ ..

(١٧٧) ـ الجاحظ كتاب الحيوان ، ٤ ، ص٤٥٣ ، ٤٥٤ .

(١٧٨) ـ سلطان ، منير ،اعجاز القرآن ، ص٢٠٢ . وراجع الجاحظ ،البيان والتبين ٣ ـ ٣٥٨ .

(١٧٩) ـ سلطان ، منير ، اعجاز القران بين العتزلة والاشاعرة ص ، ٢٠٢ . وهم الزنادقة كأبن ابي العوجاء ، واسحاق بن طالوت ، والنعمان بن المنذر ، واشباههم من الارجاس ، الذين استبدلوا بالعز ذلاً ، وبالايمان كفراً ، والسعادة شقوةً ، وبالحجة شبهةً . فقد كانوا يصنعون الآثار ويولدون الأخبار ، ويبثونها في الامصار ، ويطعنون في القرأن ، ويسالون عن متشابهه ، وعن خاصه وعامه ،ويضعون الكتب على اهله . الجاحظ ، حجج النبوة ، ص٢٧٧ ،٢٧٨ .

(١٨٠) ـ سورة الصف ، الآية : ٨ .

(١٨١) ـ سلطان ، منير ، اعجاز القران بين العتزلة والاشاعرة ، ص ٢٠٢ .

(١٨٢)) ـ سلطان ، منير، اعجاز القران بين العتزلة والاشاعرة ، ص٢٠٢ ٢٠٣

(١٨٣) ـ الجاحظ ، البيان والتبيين، ج١ ، ص١٩٣ . وينظر : الجاحظ ، حجج النبوة ،ص ٢٧٣ .

(١٨٤) ـ سلطان ، منير ، اعجاز القران ، ص ٥٩ . ينظر:الجاحظ حجج النبوة ، ص٢٧٤ .

(١٨٥) ـ المصدر نفسه ،ص٢٠١ ،٢٠٢. وينظر: الجاحظ ، حجج النبوة ، ص٢٧٣ـ ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(١٨٦) ـ الجاحظ ، حجج النبوة ، ص٢٧٥ ،٢٧٦ . راجع سلطان ، منير ، اعجاز القران ، ص٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٨٧) ـ الجاحظ ، حجج النبوة ، ص٢٧٥ .

(١٨٨) ـ الجاحظ ، حجج النبوة ، ص٢٧٥ .

(١٨٩) سورة الانفال ، الآية :٣١ .

(١٩٠)ـ سلطان ، منير ، اعجاز القران ص٢٠٢ .